آحاد الناس وعوامهم، بينما يزحف آخرون إلى مقدمة المسرح، ليلعبوا أدوار البطولة فيما استجد من فصول مسرحية التاريخ، إلى أن تدور عليهم الدائرة، فتخفت الأضواء، وتكف أجراس الهواتف في بيوتهم عن الرنين، وتنطفئ فلاشات آلات التصوير، وتبهت - بل وتكاد تنمحي - الملامح.. ولا يبقى من هؤلاء وأولئك إلا خبر ينشر في صفحة الوفيات..

ذلك هو زمان العجب الذي عشته، أتأمل بفضول ابن للطبقة الوسطى الصغيرة، يجلس على مقعد في أعلى التياترو، ما يجري على مسرحه، وأشارك أحيانًا بالرأي فيما يدور على خشبته، وأتابع فصول المسرحية، منذ نهضت الأمة، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، تطلب الاستقلال والحرية والعدل، فتشغف بثلاثيات الثورة الفرنسية، وتصوغ على نسقها الثلاثيات العربية الشهيرة، من «الاتحاد والنظام والعمل» إلى «الاشتراكية الديمقراطية التعاونية»، ومن «الوحدة والحرية والاشتراكية» - شعار حزب البعث - إلى «الحرية والاشتراكية والوحدة» - شعار مصر الناصرية الميثاقية - ويزدحم فضاؤها بأقوال ذلك الزمان المأثورة، من «على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل» إلى «خذ وطالب» ومن «الأرض لمن يفلحها» إلى «كلنا عمال وفلاحون من أصغر عامل إلى رئيس الجمهورية» ونظرياته المبتكرة من «الاشتراكية العربية» إلى «الاشتراكية العلمية» إلى «الاشتراكية الرشيدة»، وتتصاعد في سماواتها أطنان من القسم، يتعهد أصحابها بتحرير فلسطين من البحر إلى النهر، وباسترداد لواء الإسكندرونة السليب، وشط العرب المغتصب وبتوحيد الأمة من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر.. وفي نشوة الانتصارات تغني «يا أهلاً بالمعارك/ بنارها نستبارك/ ونرجع منصورين» أو تردح «قلناح نبني/ وادي احنا بنينا/ السد العالي/ يا استعمار بنيناه بإيدينا السد العالي»!

ثم يأتي على الزمان زمان، يغادر فيه بعض الأبطال، أو تغادر فيه بعض الشعارات، خشبة المسرح، ليحل محلهم، أو محلها أبطال آخرون، أو شعارات أخرى، تتناقض مع

ما كانوا يقولون، وما كانت تقول، فيكف المحيط عن هديره، ويكف الخليج عن ثورانه، وتتحول إسرائيل من «عدو» إلى «خصم»، وتحال شعارات الحرية والاشتراكية والوحدة - بصرف النظر عن ترتيبها - إلى المعاش المبكر، ويتحطم حلم الأمة العربية الواحدة، أمام موجات من الحروب الأهلية الطائفية، وترتفع شعارات «دولة العلم والإيمان» و«أخلاق القرية»، وتلقى أحلام الأمة مصارعها على يد نفس الأبطال الذين

رفعوا راياتها، وأشعلوا حماسنا لها، لأسباب يعود بعضها إلى أخطاء في تكوينهم، أو إلى عيوب في زمانهم، أو لمجرد أن سوء البخت كان يترصدهم، كما ترصد للزعيم «أحمد عرابي باشا»، الذي كانت مصر تغني له «من طلعة الفجر/ قومي يا مصر يا عيّاشة/ وقمّري العيش/ ومدّي إيديكي/ لأحمد عرابي باشا/ آمر لواء الجيش».

من بين زحام الأبطال الذين لعبوا أدوارًا رئيسية، وأحيانًا هامشية في مسرحية ذلك الزمان، استرعت انتباهي الشخصيات التي تضمها دفتا هذا الكتاب، فكتبت عنها هذه الفصول، ولم أعن حين فعلت ذلك، بالبحث عن دوافعي للكتابة عنها، أما حين اكتملت بين يدي، وقرأتها جملة، فقد تنبهت - ربما لأول مرة - أن ما يجمعها هو أنها ليست فقط شخصيات تاريخية، ولكنها أيضًا شخصيات فنية، فيها ما في الشخصية الفنية، من أضواء وظلال، ونور وعتمة، وشجاعة وحماقة، وإقدام وتراجع، وعطاء وأنانية، وكان ذلك من بين ما جعلني أشغف بها، وأكتب عنها، محاولاً أن أقرأها من الداخل، باعتبارها شخصيات لها العجب.. من زمان له العجب.

وحين آن أوان تصنيف هذه الفصول، احترت هل أصنفها على أساس تواريخ نشرها أم على أساس المرحلة الزمنية التي برز خلالها دور كل شخصية، أم على أساس انتماءاتها الفكرية؟ ثم استبعدت الخيار الأول، ومزجت بين الخيارين الأخيرين، فأصبحت - كما تراها - أقرب إلى سيمفونية من ست حركات، تضم الأولى الشخصيات التي برزت أدوارها، خلال مرحلة ما بين الثورتين، والتي أثر بعضها في المرحلة التالية، وتضم الثانية شخصيات تنتمي إلى تيار الإسلام السياسي الذي تولد في رحم الثورة القومية، وتصاعد نفوذه بعد تراجع المشروع الوطني، وتضم الثالثة الشخصيات التي تنتمي إلى ثورة 23 يوليو، أما المجموعة الرابعة، فتضم الشخصيات التي تنتمي للتيار الماركسي، بينما تضم المجموعة الخامسة شخصيات أدبية وصحفية وفنية.. ممن أثروا في ذلك الزمان، أما المجموعة السادسة فتضم سبع شخصيات روائية، تنتمي إلى عالم نجيب محفوظ، تعكس رؤيته النافذة والبصيرة.. لما كان يجري على مسرح

الزمان الذي أعقب يوليو.

وكان في نيتي أن أضيف إلى الكتاب مجموعة أخرى من الفصول التي كتبتها عن شخصيات لها العجب، تنتمي إلى عوام الناس الذين عرفتهم، ممن كانوا يشاهدون المسرحية مثلي من مقاعد «أعلى التياترو»، لولا أن حجم الكتاب كان تضخم على نحو

اضطرني إلى تأجيل نشرها، ليضمها جزء آخر منه، آمل أن يصدر قريبًا تحت عنوان «شخصيات عادية من زمان ليس كذلك».

أما الذي أراحني وأنا أقرأ هذه الفصول جملة، بعد سنوات من نشرها منجمة، فهو أنني كتبت عن شخصيات الزمن الذي عاصرته، بروح تنحو إلى الإنصاف، وتكاد تخلو من الموجدة، وحرصت بقدر ما أطيق، ألاّ أحمل على أحد ممن اختلفت معهم في الرأي أو الموقف إصرًا، وألاّ أحمله ما لا طاقة له به، وأن أرى ما في نفوسهم من نور، وما فيها من ديجور، وأحببتهم في قوتهم، وفي ضعفهم، انطلاقًا من رؤية صافية، بأن هؤلاء هم البشر، وهكذا خلقهم الله.

أما ما يدعو للعجب في هذا الكتاب - فضلاً عن تلك الشخصيات وذلك الزمن - فهو أنني لم أكد أنتهي من تصحيحه، حتى تنبهت إلى أنه - من دون أن أقصد لذلك - بدأ بـ «بورتريه» غير ثوري للملك فاروق - يحاول أن يكتشف نقاط الضوء في شخصيته المثيرة للجدل، والتي عرفها جيلنا من حملة الدعاية الثورية السوداء، التي قدمته لنا، باعتباره نموذجًا للتحلل من كل انتماء للوطن، وانتهى بـ«بورتريه»، لشخصيتين من شخصيات رواية «المرايا» التي كتبها «نجيب محفوظ» هما «عبد الرحمن شعبان» و«صبري جاد».. حيث يبدو الوطن كما لو كان وهمًا، ويبدو الانتماء له كما لو كان حماقة لا يليق بالأجيال التي ورثت زماننا أن تنتمي له، أو تضحي في سبيله.. وكأننا كنا نحرث في البحر..

أما وقد نبهني ذلك إلى أن الكتاب قد استهل بـ «مبتدأ» هو «الملك فاروق»، وانتهى بـ «خبر» هو «صبري جاد»، فقد فكرت في آخر لحظة، أن أغير عنوانه، وأن أستعير له من شيخنا «ابن خلدون» عنوان موسوعته الشهيرة «كتاب العِبَرْ وديوان المبتدأ والخبر»، لولا بعض حكمه، رأيت معها أن أكتفي بأن أدعوك إلى قراءة هذا الكتاب بترتيب فصوله، وأنصحك، أن تعود بعد قراءة آخر فصوله، إلى قراءة أول هذه الفصول، كما ينبغي لكتاب العِبَرْ الذي يضم ديوان المبتدأ والخبر.

والله من وراء القصد..

صلاح عيسى

15 يناير 2010